﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ أنْ بَيَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ كُفرَ اليَهودِ بسَببِ مَوقفِهم مِنْ رُسلِ اللهِ حيثُ كذّبوا فريقًا منهم وقتلوا فريقا، شرَعتِ هذه الآيةُ في بَيانِ مَوقفِهم من القرآنِ الكَريمِ ورَسولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ الكُفرُ بَعدَ المَعرفةِ اليَقينيَّةِ؛ وبذلكَ اسْتَحَقُّوا اللَّعنةَ التي ذُكرَتْ في الآيةِ السَّابقةِ، وللسَّببِ نَفسِه، والآيةُ وَرَدَتْ لِقَصْدِ الزِّيَادَةِ في الإنْحَاءِ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبِيخِ - فقَدْ وَرَدَ تَوبيخُهُم في الآياتِ السَّابقةِ كذلكَ - بَعدَ ظُهورِ الأَدِلّةِ على صِدْقِ الدَّعوةِ المُحَمَّديةِ الإلهيّةِ؛ إذْ إنَّهم كَفَروا بِالكِتابِ الذي عَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ عِندِ اللهِ، وأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

بَيَّنتِ الآيةُ نِعَمَ اللهِ على اليَهودِ، وما قَابَلوا به تلك النِّعَمِ مِنَ الأَفعالِ القبيحةِ؛ فأَخبرَتْ عن مَجيءِ القرآنِ، وذكرَتْ وصفَيْنِ: أَحدُهُما: أَنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، وما يَكونُ مِنْ عندِ اللهِ جَديرٌ بِأَنْ يتَقَبَّلوهُ بِقَبولٍ حَسَنٍ، وأَنْ يأْخُذوهُ بِمَأْخَذِ الطَّاعةِ لِأَوامِرِه ونَواهِيه، والوَصفُ الثّاني: أَنَّه مُصَدِّقٌ لِمَا مَعهُم؛ فهو مُصَدِّقٌ غيرُ مُخالفٍ لِمَا جاءَ في التَّوراة الّتي مَعَهُم في التَّوحيدِ وأُصولِ الدِّينِ، ومُصَدّقٌ لِمَا جاءَ مِنْ وَصفِ النَّبيِّ ﷺ؛ فَلمَّا جَاءَهم القُرآنُ الّذي هُوَ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ عانَدوا، مَعَ أَنَّهُم كانوا يَعْرِفونَ نُعوتَ رسولِ اللهِ ﷺ، عالمين بِمَجيئِه؛ إذْ إنَّهم كَانوا يَسْتنصرونَ بِهِ على العَربِ المُشركين؛ ويقولون: قَرُبَ مبعث نبيٍّ آخرِ الزمان، وسنتَّبعه ونقاتلكم معه، فلمَّا جَاءَهم رَسولُ الإسلامِ ﷺ بِما عَرَفُوا، كَفَروا بِالقرآنِ وبالرَّسولِ؛ فاسْتَحَقُّوا اللَّعنةَ بسببِ كُفرِهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: يَدورُ مَعْنى الصِّدْقِ عَلَى: قُوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وَغَيره. مِنْ ذَلِكَ؛ الصِّدْقُ: ضِدُّ الْكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ؛ وَلِأَنَّ الكَذِبَ باطلٌ لَا قُوَّةَ لَهُ، فَيقالُ: هُوَ صَادِقٌ، وَصَدُوقٌ مُبَالَغَةٌ، وصَدَّق يَدُلُّ على كثرةِ الصِّدقِ، ومُصَدِّقٌ للشَّيءِ بِمَعْنى: مُحَقِّق له، وَإذا قيلَ: صَدَّقْتُهُ بِالتَّثْقِيلِ؛ فالمعنى: نَسَبْتُهُ إلَى الصِّدْقِ، وَصَدَّقْتُهُ؛ قُلْتُ لَهُ: صَدَقْتَ[1].

2) ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: أَصْلُه (فَتَحَ)، وهُوَ نَقيضُ الإغْلاقِ، يقال: فَتَحْتُ البَابَ وَغَيْرَهُ فَتْحًا. ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا سَائِرُ مَا فِي هَذَا البِنَاءِ، والفتحُ نوعانِ: أَحَدُهما: مُدرَكٌ بالبَصَرِ؛ كفَتْح الباب والقُفْل والمَتَاع، والثّاني: مُدْرَكٌ بالبَصيرَةِ؛ كفَتحِ الهَمِّ، وهُو إزالَةُ الغَمِّ، وفَتحُ ما اسْتُغْلِقَ من العِلم، ومِنْه الفُتُوحاتُ الرَّبّانِيَّةُ، ومايَفتَحُهُ اللّه على عِبادِهِ من العُلوم، وفَاتِحَةُ كُلِّ شيءٍ: مَبْدؤُه الّذي يُفتحُ به ما بَعدَهُ، وَبِهِ سُمِّيَتْ فاتحةُ الكِتابِ، ويأتِي الفتْحُ بِمعْنَى: الحُكم والقضاءِ، وبِمعْنَى النَّصر، ومنه اسْتَفْتَحْتُ: اسْتَنْصَرْتُ، ويُحتملُ أنْ يكونَ إنْ طَلَبْتُمُ النَّصرَ أَو طَلبتُمُ الفَصْلَ في الأَمرِ والحُكْم[2]. وكلمةُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ في الآية بِمَعْنى: يَسْتَنْصِرونَ؛ أي يَسْتَنْصِرونَ اللّه بِبِعثَةِ مُحَمّدٍ – عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ –، أَو بِمَعْنَى: يَسْتعلمُونَ خَبَرَه مِنَ النَّاسِ مرَّةً، ويَستَنبِطُونَهُ من الكُتُبِ مرّةً، والأَوَّلُ أَكثرُ ظُهورًا عندَ المُفَسِّرينَ[3].

3) ﴿فَلَعْنَةُ﴾: أَصْلُهَا مِنْ (لَعَنَ) الدَّالُّ عَلَى: إبْعَادٍ وطَرْدٍ على سبيل السُّخطِ و الذَّمِّ، واللَّعْنُ من اللّهِ تعالى في الدُّنْيا انقطاعٌ مِنْ رحمةِ اللّهِ وتَوفيقِهِ، وفي الآخرةِ عُقوبةٌ، واللَّعْنُ مِنَ الإنسانِ سَبٌّ ودُعاءٌ على غَيرِهِ بالطَّرْدِ، واللّعّانُ كَثيرُ اللَّعْنِ، واللُّعْنَةُ: الّذي يَقَعُ عليهِ اللَّعْنُ كَثيرًا[4]، وتَقَدّمَ مَعنَى اللَّعنِ في بَيانِ مَعاني مُفرداتِ الآيةِ الثامِنَةِ والثّمانين.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/33.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 622، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة حَرفِ الواوِ:

عـطـفُ الـدَّلـيـلِ الـفـعـلِيِّ على الدَّليلِ القَوليّ

جاءَتِ الآيةُ على طَريقَةِ الوَصْلِ بِواوِ العَطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ المُقْتضيَةِ التَّشْريكَ في المَعْنى مَعَ ما قَبْلَها؛ لإفَادةِ تَوالي نِعَمِ اللهِ الكُبرى على بَنِي إسْرائيلَ واسْتِمرارِهِم في مُقابَلةِ هذهِ النِّعَمِ بِقَبائِحِ الأَفْعالِ والأَقْوالِ، فَعَطَفَ بالواوِ للتَّشْريكِ في الجَمْعِ بَينَ مَعْنى هَذِهِ الآيةِ وما سَبَقَها.

فَائِدةُ استعمالِ ﴿وَلَمَّا﴾:

بـيـانُ سُـرْعَـةِ الـمُـكَـذِّبين إلى تَكذيبِ الـقُرآنِ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ

(لَمَّا) ظَرفٌ بمَعنَى حِينَ وتُفيدُ الشَّرطَ[1]، وتأتي في سِياقِ الزَّمَانِ الماضي، وهي مَعَ إفادَتِها الحِينَ تُلمِحُ إلى التَّعليلِ في بناءِ الجَزاءِ على الشَّرطِ؛ فيكونُ "التَّكْذيبُ حَاصِلًا بِنَفْسِ مَجِيءِ الكِتَابِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَلَا رَوِيَّةٍ، بَلْ بَادَرُوا إِلَى تَكْذِيبِهِ"[2]؛ أي: بمُجرَّدِ مجيءِ الكِتابِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم حَصَلَ التَّكذيبُ.

العُدولُ عَن مُقتَضَى الظَّاهِرِ بِحَذفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

اسـتِـحـضـارُ سَعَةِ الـمَعَاني الـمُـقـدَّرةِ ممَّا يَقْتضِيه سِياقُ الكَلَامِ

جَاءَ جَوابُ الشَّرطِ مَحْذوفًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وحَذفُه أَبلغُ من ذكرِه لِسَعَةِ المَعاني المُعبِّرةِ عَنهُ مِمّا هُو مَعروفٌ مِنْ أَفعالِ اليهودِ، من مثلِ التَّكذيبِ والإهانةِ والجُحودِ والاستكبارِ والإعراضِ والتَّولّي وغيرِها، فلَوْ قِيلَ في الجَوابِ: (كَذَّبُوا، أو جحدُوا، أو كفرُوا) لَصَحَّ الجوابُ، ومثلُه بَقيَّةُ المعاني، ويَرِدُ هذا الأسلوبُ في مثلِ مقامِ التَّهويلِ أو التعظيمِ؛ "وإنَّما صَار الحذفُ في مثلِ هذا أبلغَ مِنَ الذِّكرِ؛ لِأنَّ النَّفسَ تذهبُ فيه كُلَّ مَذهبٍ، ولَو ذُكِرَ الجوابُ؛ لَقُصِرَ على الوجْهِ الذي تَضَمّنَه البيانُ"[3]؛ لهذا قالَ الزَّمخشري: "وجوابُ لَمَّا مَحذوفٌ وهو نحو:

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/369.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/487.
(3) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 77.

كَذَّبُوا به، واسْتهانوا بِمجيئِه"[1]؛ فليس جوابُ (لـمّا) الثانيةِ دليلًا على المَحذوفِ، الّذي قدَّرَه بعضُهم: (كَفَرُوا)[2] فحسب، بلْ هو أَوسعُ من ذلك[3].

بلاغة المجاز العقلي:

إظـهـارُ عَـظَـمةِ الكِتابِ، وبيانُ طُغيانِ المُقابلِ وكِبْرِهِ

إسنادُ المَجيءِ إلى الكِتابِ في قَولِه تعالَى: ﴿جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ مجازٌ عقلي[4]؛ لاستِحالَةِ صدورِ المجيءِ عنِ الكتاب؛ إذِ الّذي جاءَ به هُو رَسولُ اللّهِ ﷺ، وفي هذا الأسلوبِ البَلاغيّ أربَعُ لَطائِفَ تَعبيريَّةٍ:

الأُولَى: إظهارُ عَظَمةِ الكِتابِ وأَهمّيَّتِه.

الثَّانية: إبرازُ نِعَمِ اللّهِ عليهِم؛ فقدْ جاءَهُم الكِتابُ، ولمْ يُطلبْ مِنْهم الذَّهابُ إليه.

الثَّالثة: بيانُ استِكبارِهِم وتعنّتِهم؛ فَهُم لمْ يَطلُبوه، ولا بَحَثُوا عنه، بلْ جاءَهُمْ وهُمْ في دِيارِهِم.

الرَّابعة: الإشارَةُ إلى أنَّ الكِتابَ نزَلَ على رَسولِ اللّه ﷺ، ولم يَنْزِلْ عليهم، ثمَّ جاءَهُم الرّسولُ بهذا الكِتابِ لِيُؤمِنُوا بِهِ.

فائِدةُ التَّعديةِ بالفعلِ لا بالحَرفِ:

دَفـعُ تَـوهّـمِ خُصوصِ مَجيءِ الـكِـتـابِ إلى اليَهودِ

يتعدَّى فِعلُ المجيءِ بنَفسِه وبالحَرفِ، وفي هذا السِّياقِ تَعدَّى الفعلُ بِنَفسِه؛ فلم يُقلْ: جاءَ الكِتابُ إليهِم؛ لدَفعِ تَوهّمِ خُصوصِ المَجيءِ إليهِم، فلو قالَ: إليهِم؛ لَظُنَّ أنَّ الكِتابَ جاءَ إليهِم على وَجهِ الخُصوصِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَجيءِ دونَ الإتيانِ:

تـقـويـةُ حُـكْـمِ المَجازِ العَقليِّ في الإسْـنـادِ، وتَصويرُ الكِتابِ عِيانًا

عَبَّرتِ الآيةُ بفعلِ المَجيءِ لا بفعلِ الإتيانِ؛ فلَمْ يُقَل: "ولـمَّا أَتاهُم كِتابٌ"؛ ذلك أَنَّ المَجيءَ فيهِ قَصْدٌ مَعَ اعْتِبارِ تَحَقّقِ حُصُولِ مَجيءِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468.

الكِتابِ إليهم، والإتيانُ قدْ لا يَكونُ فيهِ ذلكَ الحُصولُ[1]، وَلملاحظةِ المَعْنى الحِسّيِّ في الكِتابِ؛ فَإنَّ المَجِيءَ يَغلُبُ في المَادِّيَّاتِ المَحْسوساتِ؛ فَهُو الكِتابُ المَرئيُّ المشَاهَدُ، وهُوَ مَا يُقوِّي حُكمَ المَجازِ العَقْليِّ.

فائِدةُ التَّنوين في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

الـدّلالـة على تَعظيمِ الكِتابِ أَصالةً وإضافةً

أَفادَ التَّنوينُ في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ تعظيمَ الكتابِ وتَفخيمَه[2] وعلوّ شأنه، فَكَأنَّهُ قال: جاءَهُم كِتابٌ عَظيمٌ شأنُه، ثُمَّ بَيَّن سَبَبَ عَظَمتِه حينَ وَصَفَه بأَمرين: الأوّل: أنَّهُ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهذِهِ عَظَمةٌ ذاتيَّةٌ، الثَّاني: أنَّهُ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وهذِهِ عَظَمةٌ إضافيَّةٌ، تقْتضي مَزيدَ تَعظيمٍ مِنْ جِهَةِ اليَهودِ لهذا الكِتابِ، وإنْ كان حالُهُم على خِلافِ ذلك.

فائِدةُ حَرفِ الابتِداءِ ﴿مِّنْ﴾:

الإلـزامُ بقبولِه واتِّـبـاعِ ما فيه؛ لربَّانيَّتِهِ ومَصدريَّتِهِ

نبَّهَ حَرفُ الابتِداءِ على أنَّ هذا الكِتابَ جاءٍ ابتداءً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الّذي يدَّعون عِبادتَه واتِّباعَ أوامِرِه؛ فَليسَ للرَّسولِ إلَّا إيصالُه وبَيانُه للنَّاسِ، وهوَ مَوصوفٌ بأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ[3]، وفائِدَةُ ذلك الإشعارُ بأَنَّه "جَديرٌ أَنْ يُقْبَلَ، وَيُتَّبَعَ مَا فِيهِ، وَيُعْمَلَ بِمَضْمُونِهِ؛ إِذْ هُوَ وَارِدٌ مِنْ عِنْدِ خَالِقِهِمْ وَإِلَهِهِمُ الَّذِي هُوَ نَاظِرٌ فِي مَصَالِحِهِمْ"[4].

نُكْتَةُ تَوالي الصِّفاتِ:

إثبـاتُ تصديقِ الـكـتـابِ للتَّوراةِ وعـدَمِ معارَضتِها

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ صفةً[5] ثانيةً لكتاب؛ وذلك لإثباتِ أمرٍ زائدٍ عمَّا جاء في الصِّفةِ الأولى، وهو أنَّ الكِتابَ لمْ يجئ معارِضًا أو مكذِّبًا، بل جاءَ مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم من التَّوراةِ، وهذا دَليلٌ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 221.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/349.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/164، والبروسوي، روح البيان: 1/176، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/468.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/164، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/468.

آخرُ على صدقِهِ لَدَى المخاطَبين، وهو يُؤيِّدُ أنّه منْ عِندِ اللّهِ تعالى لديهم كذلك، وبه يُلزَمون الحجَّةَ بهذا الدَّليلِ.

نُكْتةُ مَجيءِ اسمِ الفاعِلِ بِصيغةِ مُصَدِّق:

الـدّلالـة على كَـثرةِ التَّصديقِ والمَوافقةِ لِبناءِ قِيَمِ التَّواصُلِ

مَجيءُ الصِّفةِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ على صيغةِ اسمِ الفاعِلِ؛ لإفادةِ كَثرةِ ما فيهِ مِنْ تَصديقِ التَّوراةِ ومُوافَقَتِها؛ لأَنّ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الفعلِ "صَدَّقَ" على وزنِ فَعَّلَ الدَّالِّ على الكَثرةِ، ولَمَّا تَعَلَّقَ اسمُ الفاعلِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ بـ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ دلَّ على أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بكَثرةِ التَّصْديقِ والمُوافقةِ لِمَا مَعَهُم، وهوَ يُعزِّز بناءَ قِيَمِ التَّواصلِ التي يَحرِصُ عليها الإسلامُ، لا قِيمِ الانقِطاعِ والتَّخاصُمِ الّتي يمارِسُها المُكذِّبون.

تقديمُ الصِّفةِ الأولى على الثَّانيةِ:

تـقـديـمُ الأصـلِ عـلـى الـفـرعِ، والـقـاعِـدَة على أَركانِها

قُدِّمتِ الصِّفَةُ الأُولى ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على الصِّفةِ الثّانية ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ لأَنَّ "الوصْفَ بكَينونَتِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ آكَدُ، وأنَّ وصفَهُ بالتَّصديقِ ناشِئٌ عنْ كَونِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ"[1]، فالوصفُ الثّاني ﴿مُصَدِّقٌ﴾ مُتَرَتِّبٌ على كونِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، كمَا يُفيدُ أَنَّ كُلَّ ما كانَ مِنْ عندِ اللّهِ فهوَ حَقٌّ؛ لأَنَّ المُصدِّقَ لا يكونُ كذلك إلّا إذا كانَ هُوَ بِنفسِهِ صِدْقًا وحَقًّا.

سرُّ تَعْديةِ اسْمِ الفَاعِلِ باللَّامِ:

مِـنْ خَـصـائِـصِ الـقـرآنِ أنّـهُ مُـصَـدِّقٌ لِلكُتُبِ السَّابِقَةِ

تعدَّى اسمُ الفاعِلِ باللّامِ لا بنفسِهِ، فلم يقُل: مصَدِّقٌ مَا مَعَهم، فأَفادَتِ اللّامُ تقويةَ تَعلُّقِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ بِـ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ لأَنَّ الذي مَعَهُمْ هوَ مِنْ عندِ اللّهِ، والقرآنُ الّذي نَزَلَ على النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هو مِنْ عندِ اللّهِ كذلكَ، فَناسَبَ استعمالُ لامِ الاختصاصِ في الكلامِ، تقويةً لِمعنى اختِصاصِ التَّصديقِ بِالقرآنِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوراةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468، وينظر: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَعِيَّةِ دُونَ العِنْديَّةِ:

قيامُ الخِطابِ القرآنيِّ على قِيمِ الهِدايةِ والحِوارِ؛ إلزامًا لِلخَصْمِ، وتَثبيتًا لِلحُجَّةِ

عبَّرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ بالمَعيَّةِ دونَ العِنديَّةِ في قولِه تعالَى: ﴿مُصَدِّقُ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ولم يُقلْ: (لِمَا عِندهُم)؛ وهذه سُنَّةُ القرآنِ في الإخبارِ عن التَّوراةِ في أيدي اليهودِ، كَما في قولِه تعالَى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: 81]، وقولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: 47]، والمَعيَّةُ تدلُّ على مُصاحبتِهم للتَّوراةِ، والواقعُ يدُلُّ على أنَّ التَّوراةَ عندَهُم لا مَعَهُم؛ فالتَّوراةُ كانَت بأيديهِم وكانوا يَدرُسونَها فيما بينَهم، ولَمْ يلتَزِمُوا العملَ إلّا بِمَا يُوافِقُ أَهواءَهم؛ فلا يُطلق على ذلك مَعيَّة، بل عِنديَّة؛ فيُسأل عن سرِّ ذلك؟ والجوابُ: أنَّ الخطابَ القرآنيَّ قامَ على قِيَمِ الهِدايةِ والحوارِ، لا على الخُصومةِ والشِّجارِ، إلَّا إنْ صَدرَ عنِ الخَصمِ خلافُ ذلك، فالرَّدُّ خلافُ ذلِك، واليهودُ يدَّعونَ العملَ بالتَّوراةِ ومُصاحَبَتَهُم لَها؛ فكانَ المُناسِبُ خِطابَهم بِمَا يدَّعونَهُ استمالةً لقلوبِهم وإلزامًا لَهم؛ فإذا كان ادَّعاءُ ذلك صَحيحًا فهم مُلزَمون بالإيمانِ بهذا الكِتابِ المُصَدِّقِ لكتابِهم الّذي يصْحَبونَه، وإلَّا كَذَبوا في زَعْمِهم وادِّعائهم.

فائدةُ جُملةِ الحالِ:

بيانُ التَّناقُضِ بين انتظارِ الرَّسولِ، والتَّكذيبِ به عندَ مَجيئِه

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وفائدتُها: "اسْتِحْضَارُ حَالَتِهِمُ العَجِيبَةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ وَالرَّسُولِ فِي حَالِ تَرَقُّبِهِمْ لِمَجِيئِهِ وَانْتِظَارِ النَّصْرِ بِهِ، وَهَذَا مُنْتَهَى الخِذْلَانِ وَالبُهْتَانِ"[1].

بلاغةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسْنَدِ:

العنايةُ بالحالةِ الزَّمانيَّةِ؛ لِزيادةِ التَّعجُّبِ من حالِ المُكذِّبين

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن قَبْلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على المُسْنَدِ ومُتعلَّقه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ الأصلُ في ترتيبِ الكلامِ: "وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/602.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ"؛ لِيدلَّ على أَهميّةِ الحالَةِ الزَّمنيَّةِ والعِنايَةِ بها، فمَعرفتُهم بالنَّبيِّ الأُميِّ كانت قبلَ مجيءِ القرآنِ إليهم، وكانت صِفاتُه ونُعوتُه - ﷺ - مكتوبةً عندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ، وليدلَّ كذلكَ على الزيادةِ في التَّعجُّبِ من الحالِ التي كانوا عليها، ثمّ صاروا إليها.

نُكتةُ تَعْديةِ فعلِ الاستفتاحِ بِحرفِ الاسْتعلاءِ:

بيانُ تكبُّرِ اليَهودِ على العَربِ، وشَديدِ كفرِهِم وعِنادِهم

تعدَّى الفعلُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ لفائدتين: إحداهما ظاهرةٌ، والأخرى إشاريَّةٌ؛ أمَّا الظَّاهرةُ فهي أنَّ اليهودَ يَعتقدونَ أنَّهُم أَفضلُ مِنَ العربِ المُشركينَ؛ فقدْ كانُوا أَهْلَ كِتابٍ وَمَعرفةٍ باللهِ وشرائعِه؛ ولهذا كانَ الاستفتاحُ بعُلُوٍّ واستظهارٍ على العربِ، كمَا أَنَّ النَّصرَ الّذي يَدلُّ عليه الفَتحُ يدلُّ على عُلُوِّ المُنتصِرِ واستظهارِهِ على المَهزومِ، وأَمَّا الإشاريَّةُ فهي بيانُ شديدِ كُفرِهِم وعِنادِهِم؛ فقد استَغْنَوا عن النَّصرِ والتَّمكينِ الّذي يَعلمونَه من هذا النَّبيِّ، إلى الكفرِ والهَزيمةِ الّتي يَعرفونَها ممَّنْ يُعادِيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكفرِ دونَ الشِّركِ:

بيانُ الاعتبارِ الّذي ينطلِقُ منهُ اليَهودُ في مُعاداةِ الآخَرِ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكُفرِ في صِلةِ الموصولِ في قولِه تعالَى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ أَشْرَكوا؛ ذلك أَنَّ اليهودَ لم يَكونُوا مُلْتَفِتين إلى خَطرِ الشِّركِ باللهِ تعالَى - مع زَعْمِهم التَّوحيدَ -، بلْ كانَ غايةُ حالِهم هو معاداةَ مَنْ يُخالِفُهم في دينِهم بوصفِهم أصحابَ ديانَةٍ كتابيَّة، فالاعتبارُ عندَهم هو مخالفَةُ الآخَرِ لذاتِهم الدِّينيَّةِ، لا مخالفةُ الآخرِ للحَقِّ؛ فلذلكَ آثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ الكفرِ، بخلافِ الشِّرك؛ للتَّنبيه على منهجِهم، والحَذَرِ مِنْ زَيفِهم.

بلاغةُ كَسْرِ المُتَوقَّعِ:

المَجيءُ بعَكسِ المَطلوبِ إيغالٌ في الكُفرِ، وقبحٌ في السُّلوك

أَفَادَت (لمَّا) الثَّانيةُ أَنَّ مَعرفتَهم بالقرآنِ والرَّسولِ كانَتْ سَبَبًا لِكُفرِهم، علَى عَكْسِ المَرْجُوِّ وهوَ أَنْ تَكونَ المَعرفةُ سَبَبًا إلى الإيمانِ؛ لِيدلَّ على قُبحِ أَفْعالِهِم وفَظاعةِ تَصَرُّفاتِهم مَعَ رُسُلِ اللهِ،

وتختلفُ النُّكتةُ هنا عن النُّكتةِ الأولى في إسنادِ المجيء ففي الأولى لـ(كتاب)، وهنا لـ(ما عَرَفوا)؛ فمجيءُ (الكتاب) هو علَّةُ الكفرِ والتَّكذيبِ، ومجيءُ (ما عَرَفوا) هو المُفاجِئُ في الكُفْرِ، فهما نُكتَتان مُستقلَّتان مُتواصِلَتان، واستقلالُ النُّكتَتَيْن هو الذي يَجعلُ وظيفةَ (لـمَّا) الثَّانيةَ بيانيّةً مُختلِفةً عن وظيفةِ الأُولى، وإلَّا لوَقَعَ التِّكرارُ الّذي لا يَليقُ بنظمِ القُرآنِ الكريم.

نكتةُ العُدولِ عن مُقتَضَى الظّاهرِ:

الـدّلالـة على الـعُـمـومِ؛ ليشملَ الكِتابَ والرَّسولَ

عَدَلَ النَّظمُ عَنْ: "فَلَمَّا جَاءَهُمُ الكِتَابُ"؛ أي: المذكورُ في أوَّلِ الآية؛ فتكون اللامُ للعهدِ الذِّكريّ، إلى إيرادِ لفظٍ يُفيدُ العُمومَ، وهو الاسمُ المَوْصُول؛ فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾؛ لِيَكُونَ اللَّفْظُ أَشْمَلَ؛ فَيَشْمَلَ الكِتَابَ وَالرَّسُولَ الَّذِي جَاءَ بِه؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ كِتَابٌ إِلَّا مَعَ رَسُولٍ، وَوَقَعَ التَّعْبِيرُ بِـ(مَا) المَوْصُولَةِ دُونَ (مَنْ) لِأَجْلِ هَذَا الشُّمُولِ؛ لأنَّ (ما) تشملُ العاقِلَ وغيرَه إذا اجتمعا[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذفِ:

تَقليلُ اللَّفظِ لِتكثيرِ المَعنَى وتَعميمِهِ

حُذِف العائدُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، فَلَمْ يَقُل: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ ماعرَفُوه"؛ ليُفيدَ عُمومَ المتعلّق[2]، فصار المعنى: فلمّا جاءَهُم كُلُّ ما عَرَفوه من الكِتابِ والشَّريعةِ وأَوصافِ سيِّدِنا محمّد ﷺ؛ فحُذِفَ ليَشملَ اللَّفظُ هذه المعاني كلَّها.

سرُّ التَّعبيرِ بلَفظِ الكُفرِ دونَ التَّكذيبِ:

التَّـوبـيـخُ والـتَّـحـقـيرُ بإلحاقِ اليَهودِ بِـمَـن كـانـوا يـحـتَـقِـرُونَـهُـم لِكُفرِهم

عبَّرَت الآيةُ بلفظِ الكفرِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾، دونَ التَّكذيبِ أو الافتراءِ عليه؛ لاشتمالِ لفظِ الكفرِ على هذهِ المعاني، ولِلَمْزِهم بإلحاقِهم بالّذين كفرُوا المُسْتَفتحِ عَلَيْهِم في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فاليهودُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

كَفَرُوا كَمَا كفَرَ غيرُهم من المُشركينَ، فهُمْ في ذلك سَواءٌ، بلْ هُمْ أَشَدُّ كُفْرًا لِمعرفتِهم وجَهلِ العَربِ، وليسَ العارفُ كالجاهلِ! وفيهِ مِنَ التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والتَّحقيرِ ما لا مَزيدَ عليهِ.

دلالة حَرْفِ الفَاءِ:

تَرتيبُ النَّتيجةِ على السَّببِ، ومُقابلةُ الاستهانةِ بالاستهانةِ

لَمَّا كَانَ الكِتَابُ جَائِيًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوهُ وَسَتَرُوا مَا سَبَقَ لَهُمْ عِرْفَانُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِهَانَةً بِالمُرْسِلِ وَالمُرْسَلِ بِهِ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ بِالاسْتِهَانَةِ وَالطَّرْدِ[1]؛ فكانت لعنةُ اللهِ مُترتّبةً على اسْتِهانَتِهم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وبالرَّسولِ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

التَّغايُرُ في وَصفِ الفاعِلِ:

تَنزيلُ الجُملةِ الأولى منزلةَ التَّوطِئةِ للثَّانيةِ، تدرُّجًا في بيانِ الحقائقِ

غايَرَتِ الآيةُ بين فاعِلِ المجيءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾، فذَكَرتِ الجُملةُ الأولى الكتابَ، والثَّانيةُ الاسمَ الموصولَ المُتضمِّنَ معرفتَهم بالرَّسولِ والرِّسالةِ وعلاماتِهما؛ ذلك لتنزيلِ الجملةِ الأولى منزلةَ التَّمهيدِ والتَّوطِئةِ للجملةِ الثَّانيةِ، فلمَّا جاءَهم الكِتابُ، جاءَهم المَعروفُ لَدَيهم من كتابِهم، فوقعتِ الثَّانيةُ مباغتةً ومفاجئةً للمتلقِّي، فكانتِ الأولى مصرِّحةً بمجيءِ الكتابِ، متضمِّنةً مجيءَ الرَّسولِ، والثَّانيةُ مصرِّحةً بهما معًا، وهذا من بديعِ التَّدرُّجِ في بيانِ الحقائقِ بما يتَّفقُ مع واقعِ المُتحدَّثِ عنهُم.

فائدةُ وَضْعِ الظَّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

سببُ اللَّعنةِ، الاعتبارُ العَقَديُّ لا الاعتبارُ الشَّخصيُّ

وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ المُضْمَرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إذِ الظَّاهرُ: فلعنةُ اللهِ عليهم، لكنَّه آثرَ ذلك لبيانِ أنَّ سببَ اللعنةِ هو كفرُهُم، أي: باعتبارِهم العقديِّ، لا باعتبارِهم الشخصيِّ، ولمراعاةِ الفواصلِ بعد ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

دلالة (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بَينَ العَهديةِ والجِنسيَّةِ:

تحتملُ اللامُ في كلمةِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجِنسَ، أي: جِنسَ الكافرين؛ فيكونُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ ذِكرِ الجِنسِ، فتفيدُ عمومَ الكافرينَ، ويُلحَقُ المتحدَّثُ عنهم بهم[1]، ويُحتمَلُ أَنْ تكونَ للعَهدِ، أَخذًا مِمَّا وَرَدَ في السِّياقِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾[2]، والوَجهانِ مُتآيلانِ لا متدافعانِ.

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ:

أفادَ حرفُ الجَرِّ (على) استعلاءَ اللَّعنةِ وتمكُّنَها من الكَافِرين، فلَمْ يَكْتَفِ النَّظمُ بِاللَّعْنَةِ حَتَّى جَعَلَهَا مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ جَاءَهُمْ مِنْ أَعْلَاهُمْ، فَجَلَّلَهُمْ بِهَا[3]؛ ليدلَّ على تمكُّنِ اللَّعنةِ منهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»